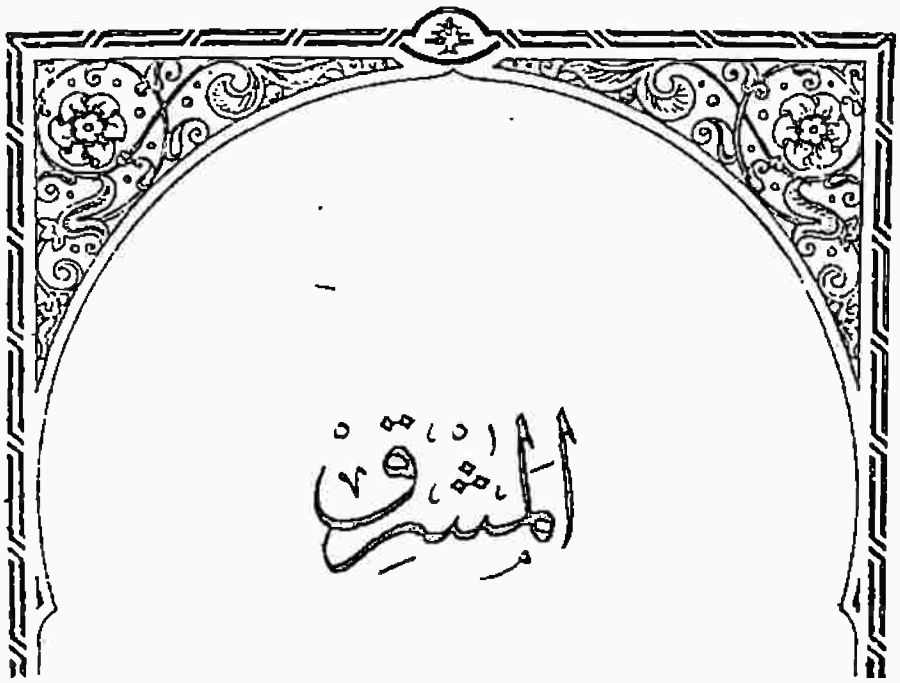

السنة الثامنة والاربعون — ايار - حزيران ١٩٥٥

كتاب

الدرّ المرصوف في تاريخ الشوف (تابع)

تأليف القس حنانيا المنيّر من الرهبانية الشويرية

مهّد له وعلّق حواشيه ونشره

الاب اغناطيوس سركيس
من الرهبانية الشويرية

وفي هذه السنة توفي الامير قاسم ابن الامير عمر الشهابي في قرية غزير من معاملة كسروان في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان . ودفن في تربة الامراء بني عساف في القبة القائمة في الجهة القبلية من غزير . وكان رجلاً مهيباً جليل القدر محمود السيرة . وهو الذي تقدم الكلام عنه في ذهابه الى القسطنطينية . وكان جسوراً على المخاطر . وكانت تهابه جميع اعيان البلاد . ولم يكن له

من العمر اكثر من اربعين سنة . وتوفي عن ولدين صغيرين احدهما الامير حسن والآخر الامير اشير . وقيل في وفاته ما يلي :

ايا قاسماً قد فقت فضلاً على الورى ... بت الى مولاك حي سبركا

فمن ماتهايين قبلك فاخروا ... الى درجات المجد ارخ بشيركا

وفي هذه السنة وقع اختلاف بين الشيخ كليب نكد وابني عمه الشيخ فهد والشيخ شاهين . وحضروا الى دير القمر وحدث بينهم جلة شرور . وكان ذلك بتدبير الامير منصور لانه كان يكره الشيخ كليب لاجل محبته لابن اخيه الامير يوسف . وبعد ذلك حضر الامير منصور وفصل بينهم .

وفي سنة ١١٨٢ (١٧٦٨) كان حاكماً في بلاد الصعيد الشيخ همام الذي تقدم الكلام عن التجاء الامير علي بك اليه وتجهيز العرب لنصرته . وكان هذا شيخ مشايخ العربان وتحت يده جيوش غفيرة وله صولة عظيمة في تلك البلاد وقد ذكرنا ان الامير علي بك كان له عنده صداقة عظيمة . وكان قد استظهر على خليل بك ودخل مصر واستولى عليها بامداده . ولما تمكن من ولايته دعا اليه الشيخ همام فحضر طائعاً في الجزاء الاوفى . حتى دخل عليه فامر بقتله في الحال من غير ذنب ولا سبب . وتشتت عشيرته بعد ذلك وضعفت احوالهم .

وفي ١١٨٣ (١٧٦٩) جمع علي بك ما لا يحصى من العساكر وجهزها الى الاقطار الحجازية . واقام عليها مملوكه محمد بك ابا الذهب . وكان الظاهر انه يريد اخراج الشريف من مكة لسوء تصرفه في الاحكام . والباطن انه يريد أن يتملك الحجاز . ثم اليمن . ثم يمتد الى الشام وما يليها . فتسلم محمد بك مدينة مكة واخرج الشريف مساعد . واقام مكانه الشريف عبد الله . وكان قد تسلم مدينة جدة بالامان واقام عليها حسن بك . فارتعدت منه تلك البلاد ورجع بعد ذلك الى مصر . فعظم امر الامير علي بك . ونفى الوزير القائم بامر الدولة في مصر وضربت السكة باسمه وتسلم قلعة السلطان ولبس السمة وجاقات من رجاله . وكان في تلك الايام حرب بين السلطان والدولة المسكوبية فكان ذلك اسعافا له على مرامه .

وفي هذه السنة تظاهرت امور الشيخ ظاهر العمر حاكم مدينة عكا .

وكان من [illegible] يحكم بشرقيه [illegible] في [illegible] صور وبلاد البشارة . وكان تجبرهم مالأ وجه [illegible] باصيف القصار . وكان تحت يده حصون وقلع متينة . وكان في تلك [illegible] على دمشق عثمان باشا الصادق . وكان بينه وبين الشيخ ظاهر العمر منافرة . فجمع كثيراً من العساكر . واتفق مع امراء جبل الشوف واضمر الغزو الى بلاد الشيخ ظاهر . فلما علم الشيخ ظاهر بذلك كتب الى الامير علي بك . وشرح له واقعة الحال . وكان قد بلغه المشاجرة التي وقعت بينه وبين عثمان باشا في مكة كما تقدم . ولذلك طمع منه في الاجابة وارسل اليه هدية جليلة وتعهد له بالاسعاف على كل ما يريده في بر الشام . وكان علي بك قد عزم على الخروج عن طاعة الدولة وامتلاك عربستان من العريش الى بغداد . وكتب الى الملكة كاترينا ملكة المسكوب ان ترسل اليه المراكب الحربية وهو يملكها المدن التي في عربستان . فلما وصلت اليه رسالة الشيخ ظاهر العمر رآها طبق المرام فجهز له ستة سناجق وقدم عليهم اسماعيل بك الكبير وكان من الشجاعة على جانب عظيم . وارسل معهم عشرة آلاف فارس من الغز والمغاربة والعربان وامرهم ان يكونوا في طاعة الشيخ ظاهر العمر كما يأمرهم . فساروا حتى رجعوا الى غزة . وكان يومئذ عثمان باشا في اراضي القدس لاجل جباية الاموال السلطانية . فبلغه خبرهم فارسل يسألهم عن سبب قدومهم . فلم يردوا عليه جواباً . ولما رجع رسوله بغير جواب ارتاب من ذلك وتحول من ساعته الى الجبال ثم رجع الى دمشق . ولما علم الشيخ ظاهر العمر باقبال العساكر الى بلاده ارسل اولاده الى ملتقاهم . فالتقوا بهم في اراضي يافا وحضروا بهم الى عكا بموكب عظيم فالتقاهم الشيخ ظاهر بكل اكرام واحتفال وقدم لهم كلما يحتاجونه من الاقامات والذخائر . واما عثمان باشا فانه بعد رجوعه من جبل نابلس الى دمشق اخذ يتجهز للحج حتى قرب اوان خروجه . فنهضت العساكر المصرية من اراضي عكا وقدامهم الشيخ ظاهر العمر واولاده وعشيرته ورجاله . وكان موكباً عظيماً ينوف على عشرين الفاً وساروا الى ارض المزاريب . فطلب الشيخ ظاهر السير فامتنع اسماعيل بك . وقال لا يجوز لنا ان نقاتل الزوار الى بيت الله . ولكن نرسل الى عثمان باشا ان يجوز الينا بعساكره لاننا قاصدون قتاله فقط . وارسلوا اليه بذلك .

فاجاب انني قصدت المسير الى الحج الشريف . ولا يمكنني الابطاء . فان كنتم تريدون محاربة الروار الى بيت الله الحرام فنحن استعنا عليكم بالله . ولما بلغ اسماعيل بك هذا الجواب قال: نعوذ بالله من قتال الحجاج الى حرمه . والدخول تحت غضبه . وكان اسماعيل بك قد ضجر من اخلاق اولاد الشيخ ظاهر العمر وعشيرته . فامتنع هذا الامتناع كراهة لهم لا مهابة من قتال الحجاج . وبعد ذلك رجعوا الى اراضي يافا . وكتب الشيخ ظاهر الى علي بك ليشكره اليه امتناع اسماعيل بك عن مباشرة ما اتى اليه . فاستشاط علي بك من ذلك واخذ يجهز العساكر والجنود .

وفي هذه السنة قبض الامير يوسف على جملة اناس من المشايخ الحمادية . فالتجأ قومهم الى وزير طرابلس . وامدهم بعسكر . فخرجوا به الى قرية بزيزا . فسار اليهم الامير يوسف . ووقع القتال بينهم في اميون . فانكسر عسكر طرابلس . وصارت التفكجية في البرج الذي في اسفل القرية . وقتل منهم جملة انفار . ثم سلموا بالامان وانصرفوا الى طرابلس ورجع الامير يوسف الى جبيل .

وفي سنة ١١٨٤ (١٧٧٠) توفي الامير اسماعيل ابن الامير يوسف رسلان حاكم الغرب الادنى . ولم يكن له ولد فاوصى بتركته الى الامراء بني شهاب وحرم اقاربه منها لفتنة كانت بينه وبينهم . فقسمت الامراء الشهابيون تلك التركة وكانت جانباً عظيماً ولم تأخذ اقاربه منها غير القليل على اصطلاح الدروز لان الوصية عندهم تنفذ من جميع التركة رغماً عن الورثة . الا ان الموصي يقطع ميراث وارثه بما اراد ولو بدرهم واحد . فلا تحق له المطالبة بغيره خلافاً للمسلمين . وكانت الوصية شائعة لبني شهاب . ولم يخصص بها الواحد منهم بشيء من التركة فاختلفوا عليها . وكان اكثرهم جهاداً في ذلك الامير علي اخو الامير منصور واخوه الامير يونس والامير سيد احمد ابن الامير ملحم . ثم دخل الامير منصور بينهم وترك لهم سهمه من الوصية وقسم بينهم بالسوية . فاخذ الامير علي وادي شحرور واخذ الامير يوسف بساتين البرج واخذ الامير سيد احمد طاحون المخاضة وبعض بساتين في نهر بيروت .

وفي هذه السنة في شهر شباط توفي الامير احمد الشهابي في دير القمر .

وحضر الى مناخه ... منصور . واقام الامير يوسف في ... الامير منصور مقيم في بيروت

وفي هذه السنة خرجت العساكر المصرية طالبة الاقطار الشامية والقائد عليهم محمد بك ابو الذهب . ولما وصل الى اراضي غزة والرملة التقاه اسماعيل بك والسناجق الذين معه . وحضرت اليه اولاد الشيخ ظاهر العمر والمشايخ المتاولة . وصار جيشاً عظيماً يزيد على الستين الفاً وسار محمد بك بتلك العساكر طالباً دمشق الشام . وكان عثمان باشا قد رجع من الحج ودخل مدينة دمشق في تلك الايام . ولما بلغه قدوم محمد بك ابو الذهب داخله الخوف والرعب . ولكنه تجلد وجمع العساكر وخرج بها لقتال العساكر المصرية في نواحي المدينة . ولم تكن الا جولة حتى انثنى منهزماً واخلى المدينة وهرب فضرب محمد بك سرادقه وحاصر البلد اشد الحصار . وكان قد اصحبه علي بك بكتاب . فارسله اليهم . وكان بهذه الصورة :

« صدر هذا الفرمان العظيم الشان من ديوان مصر القاهرة المحروسة المعالي دامت لها السعادة والاقبال على مر الايام والليال .

« من منّ عمن منّ به الكريم المنان على اهل هذا الزمان فاظهر العدل والامان . وعم بالفضل والاحسان جميع المدن والبلدان . وارغم انوف اهل الجور والطغيان امير الامراء الكرام وكبير الكبراء الفخام . المختص بعناية الملك العلام . امير اللواء الشريف السلطاني والعلم المنيف الخاقاني الامير علي بك امير الحج سابقاً وقيسقام مصر المحروسة حالاً دام بقاؤه . ورفع بالسعد لواؤه .

« مضمونه حمد باري النسم ومحيي الرمم الذي قدس وعظم قدر الحرم وامر بالعدل في جميع الامم ووعد الظالمين بالهلاك والنقم القائل في كتابه المبين انه لا يحب الظالمين ولا يصلح اعمال المفسدين .

« وبعده الصلاة والسلام على رسوله الامين سيد الخلق اجمعين الفاضل وهو اصدق من يقول ان الضرر يزول وعلى اصحابه الذين سادوا وشادوا الدين صلاة وسلام الى يوم الدين .

« وبعده التحيات والتسليمات بمزيد الامن والبركات على حضرة العلماء المحققين والفقهاء المدققين المفتين بشريعة سيد الانام وقضاة الاسلام وارباب المناصب واحكام . والخاص والعام من اهالي دمشق الشام . اعزهم الله بنور العدل واحكامه واحارهم من الظلم وظلامه . وافاض عليهم جزيل إنعامه

« اما بعد يا ايها القوم فان الامة لا تجتمع على الضلالة . وقد علمتم ما عمه عثمان باشا في ارضكم من الظلم والخيانة وانه قد اعترض الحجاج والزوار وساط عليهم الاشرار والفجار بالاذى والاضرار . وطمع المسافرين والتجار واذل الاماكن الشريفة وبدل امن الحرمين

بالجميع . وتعدى على حدود الدين وفعل ما لا يليق بالمسلمين . وقد قال من لا تراه العيون « من يتعدى على حدود الله فاولئك هم الظالمون » . فلما سمعنا منه ما سمع وانه في الارض المقدسة قد ولع بادرنا لسوء اعماله بالتنفيس كما سبق في العام الماضي من ظلمه البعض واردنا ان نطهر منه تلك الارض عبرة للدين وغيرة على المسلمين ورفقاً لاقراره على الارض المقدسة لما جاء في الحديث الشريف « ما حل عرسكم حل بكم » وقد علمتم ما فعله علماء عزة . وكيف رماهم بالذلة بعد العزة ودفنهم في الارض وهم في الحياة وقد جاء بحديث القدسي عن الاله عز وجل اوليا . ان اذنه اذنه وقد قال في كتابه رب السموات ما يخشى الله من عباده العلماء » . « فان كنتم بذلك غير راضين وعلى رفع ضرره غير قادرين فنحن عول انا قادرون على ذلك . وقد افتانا المذاهب الاربعة بذلك . فاستخرنا الله وهو نعم الولي . وسألناه ان ينصر دين محمد بلي . وقد جهزنا العساكر والابطال زضى الملك المتعال ليردوا الظالم ويستردوا المظالم ويبيروا الباطل من العالم . فالمراد منكم ترك الظالم والبعد عنهم اجمعين . ومن بقي جمع منكم فانه يكون منهم . فاجتهدوا ان تبتعدوا عنه . وامير الحج الشامي من طرفنا يتولاه حفظاً وصيانة لحجاج بيت الله . وكما قال الملك الرحمان « تعاونوا على البر بالتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » وها نحن قد اخبرناكم واختبرناكم . ومن اقامة هذا الظالم في ارضكم حذرناكم . والعساكر قاصدة اليه واجمع ماتلون عليه . فلا تدعوه يقيم في ارضكم ويبقى عيالكم . وقد ساخطنا غضب الله وسخطه عليه . فاحفظوا منه جميع اموالكم واخواتكم . ورأي العلماء والاكابر اعلى . وانتم بفعل الخير اولى . وعلى القريب منكم والبعيد والطارف والتليد والاحرار والعبيد امان الله ورأينا السديد . والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . والمير يكون والصعب يهون بعون الله تعالى والسلام . »

فلما وصل هذا الكتاب الى اهالي دمشق خرجت اليه العلما . والاكابر وطلبوا منه الامان . فاكرمهم غاية الاكرام ودخل معهم المدينة .

وكان بين الامير منصور الشيابي والشيخ ظاهر العمر محبة عظيمة . وكان الامير منصور يكره عثمان باشا لانه كان يميل الى الامير يوسف . ولما بلغ الامير منصور قدوم محمد بك ابي الذهب الى نواحي دمشق ونجاح بغية الشيخ ظاهر العمر ارسل الى الشيخ ظاهر يهنئه بنوال مطلوبه . والشيخ ظاهر اطنب في مديح الامير منصور في ديوان محمد بك . واخرج له منه كتاباً يطيب قلبه به ويتخذه صديقاً له فارسل اليه الامير منصور مع الجواب هدايا فاخرة من الخيل والسلاح . ودخل في خاطره .

واما عثمان باشا فسار بعد ذلك الى اراضي حمص وارسل الى الامير يوسف يخبره بما كان ويطلب منه النجدة على ابي الذهب . فبادر الامير يوسف الى جمع الرجال . واستعد للسفر واما محمد بك ابو الذهب فانه دخل الى المدينة كما مر

احسن سبيل .

وكان اسماعيل بك قد اتخذت نفسه من اخلاق عشيرة الشيخ ظاهر العمر واولاده وكره الدولة التي سكونون فيها . فاخذ يتملق سليمان محمد بك ان الذهب ويوسوس له بالرحيل . واتفق في ذلك الوقت قدوم امين الصيرة الى دمشق فاجتمع به اسماعيل بك واتفق معه على ذلك . فلما امين الصيرة محمد باشا على خروجه عن طاعة السلطان واكثر في خطابه من الترهيب والتهديد . وظن له بعد عودته الى الدولة ان يعتذر عنه ويستعطف عليه . فاجابه محمد بك . وفي تلك الليلة جمع السناجق والكتاف ونادى فيهم بالرحيل . ومن اصبح الصباح الا والقوم في الطريق . فعجبت الناس من ذلك ولم يعلموا له سببا . وانقلب الشيخ ظاهر العمر وعشيرته على اعقابهم خاسرين . ولما بلغ عثمان باشا قيام ابي الذهب عن دمشق نهض راجعاً اليها . وكان الامير يوسف قد جمع عسكر البلاد وسار به طالباً دمشق الشام . وعند وصوله الى ارض البقاع بلغه رحيل ابي الذهب فاصرف اكثر العساكر وتقدم بجانب منه الى دمشق مهنئاً عثمان باشا بزوال المكروه فاكرمه عثمان باشا غاية الاكرام . واقام عنده اياماً ثم استأذنه بالرجوع . فانعم عليه ورده عزيزاً كريماً . وعظم الامير يوسف في اعين الناس ومالت اليه اكابر البلاد وضعف حزب الامير منصور .

حكم الامير يوسف ١١٨١-١٢٠٤ (١٧٦٧-١٧٨٩)

فلما رأى الامير منصور ذلك وعلم انه لا يستطيع ان يثني الناس اليه كتب الى الامير يوسف وبعض المشايخ واشهر عصيانه بان يكون الامير يوسف حاكماً في البلاد . فتسلم الامير يوسف زمام الولاية وخرجت له الخلع من عثمان باشا وولده درويش باشا والي صيدا وصفت له الاياد وطاعته اهالي البلاد واما عثمان باشا فانه بعد رجوعه الى دمشق الشام اخذ يجمع العساكر والجنود وخرج قاصداً حرب الشيخ ظاهر العمر حتى انتهى الى اراضي طبرية . فبلغ خبره الشيخ ظاهر فجمع رجال بلاده وتوجه الى ملتقاه . فوقع عليه ليلاً بخيله ورجاله . وكان القوم نياماً . فما انتبهوا الا وقد عشيتهم الرجال واعملت فيهم السلاح . فانذعروا

ولما يئسوا انفسهم للقتال فروا وكثير منهم القى نفسه في البحيرة . واغتنم عثمان باشا الهزيمة فنجى وعاد في طريقه الى دمشق وقد قتل من عسكره مقتلة عظيمة . واغتنم الشيخ ظاهر وعشيرته اسلاباً واموالاً لا تحصى . وعاد ظافراً الى بلاده . وبلغ ذلك درويش باشا ابن عثمان باشا وكان في مدينة صيدا . فخاف ان يسطو عليه الشيخ ظاهر . فترك صيدا وتوجه الى دير القمر ومن هناك الى دمشق . فارسل الشيخ ظاهر متسلماً من قبله الى صيدا يقال له احمد آغا الدنكزلي كان يخدم الشيخ ظاهر . وكان مغربياً اكتع اليدين لكنه كان شجاعاً حكيماً فتسلم صيدا وتولى عليها باسم الشيخ ظاهر .

وفي سنة ١١٨٥ (١٧٧١) كان محمد بك ابو الذهب قد رجع الى مصر فشق ذلك على الامير علي بك وانكر عليه تلك الرجعة وكرهه لاجل ذلك فاشتعلت نار العداوة بينهما . وتغلب محمد بك على علي بك وطرده من مصر . فحضر فالتجأ الى الشيخ ظاهر العمر في عكا وكان معه جماعة كثيرة من الغز . فقبله الشيخ ظاهر بكل اكرام وتقوى به واتفق معه على العصاوة . وكتب الى ملكة الموسكوب وطلب منها الاسعاف على الدولة العلية بان ترسل اليها العساكر في البحر ويسلمانها المدن البحرية واقاما ينتظران الجواب .

حروب المتاولة

وفي هذه السنة جهز الامير يوسف ركبة على المتاولة . وكانوا حينما رأوا انهم قد انتصروا على عثمان باشا في موقعة الشيخ ظاهر العمر وان علي بك قد حضر الى بلادهم واتفق مع الشيخ قد قويت شوكتهم وتمردوا فاخذوا يتطاولون على اطراف بلاد الشوف والجولة ومرجعيون وتلك الجهات . وتواردت عليهم الشكايات الى الامير يوسف فكتب الى خاله الامير اسماعيل حاكم وادي التيم واستدعاه الى الركوب معه عليهم . فاجاب . ونهض الامير يوسف بعسكره حتى وصل الى جباع الخلاوة اول بلاد المتاولة . وكان فيها الشيخ حيدر الفارس . فانهزم . ودخلها الامير يوسف فامر باحراقها . وانتقل الى النباطية . فحضر اليه كتاب من الشيخ ظاهر العمر يسأله ان يرفع الحرب عن البلاد وضمن له ثلاثة شروط : الاول ان يحمل مشايخ المتاولة على ان يحضروا ويترامروا عليه ويطلبوا رضاه . والثاني ان يلزمهم ان يقدموا له نفقة عسكر دراهم معلومة . والثالث

ان يملأه مدة قصيرة . وكانت هذه [illegible] الشيخ ناصيف اليازجي . ثم يقبل الامير يوسف صوبه وهو راكب بحصانه على الخرب . وكان الشيخ عبد السلام عماد والشيخ كايد سكند في تلك الخطوة . وكان ميالها الى الامير منصور . وكان الامير منصور يروم خفض شأن الامير يوسف . وكان يراسله على السعي في فساد امره . وما حضرت اليه تلك الرسالة استشارهما بذلك فلم يشيرا عليه بالقبول وارسلا سرا الى المشايخ المتاولة ان يتصلبوا للحرب وانهما عند القتال ينكسران قدام العسكر فيتبعهما ويظفرون بالامير يوسف كما يشتهون . فاجتمعت المتاولة عسكرا واحدا وتجرد منهم نحو مئة خيال واقبلوا على عسكر الامير يوسف فانكسر العسكر امامهم ولم يصدقوا ذلك حتى رأوا العسكر يزاحم بعضه على الهزيمة . فساقوا في آثارهم . واعملوا في اقفيتهم السلاح . فمات منهم خلق كثير بالسيف وبعضهم بالتعب وبعضهم بالعطش وكانوا نحو ثلاثين الفا فقد منهم اكثر من الف وخمسمئة نفر . وتشتتوا في البراري والقفار . وكان يوم غنية للمتاولة فاغتنموا اسلابا لا تحصى وعادوا الى بلادهم . ورجع الامير يوسف الى دير القمر مخذولا . وقام العويل والنحيب في جميع اقطار البلاد وكنت ترى النساء في كل مكان كالاغربة من لبس الحداد . وانكسرت بعد ذلك نفس الامير يوسف وتردت المتاولة .

الجزار في لبنان

وفي هذه السنة بعد هذه الوقعة بنحو شهرين من الزمان حضر الى دير القمر احمد بك الجزار ومعه عبد له ومملوك وسائس . فاقام في الدير مدة يسيرة وانعم عليه الامير يوسف . وانصرف من عنده عزيزا كريما . وسيأتي الحديث عنه في مكانه . ان شاء الله تعالى .

وفي سنة ١١٨٦ (١٧٧٢) . اراد الامير يوسف ان يجدد ركبة ثانية على المتاولة . فاستغاث بعثمان باشا الكرجي والي دمشق . فارسل اليه ولده درويش باشا وخليل باشا الذي يقال له دالي خليل واحمد بك الجزار ومعهم نحو الف فارس وجماعة من الغز . وجمع الامير يوسف عسكرا من البلاد . وساروا في نصف شهر ايار الى صيدا وحاصروها سبعة ايام . وكان فيها احمد اغا الدنكزلي المغربي مسلما من قبل الشيخ ظاهر العمر . فضاق صدره واراد التسليم وارسل

يطلب الامان . وبينما هم كذلك اقبل الشيخ علي ابن الشيخ ظاهر ومعه نحو الف فارس من متاولة ومشايخهم . ومثلها من الغز من عسكر علي بك لانه كان لم يزل في عكا . وكان قائد الغز علي بك الطنطاوي . وكان بطلاً لا يقاس بالابطال . ولما اقبلوا على درويش باشا واصحابه نهضوا لملتقاهم وانتشبت بينهم الحرب فاقتتلوا اشد القتال . وجاهدت في ذلك اليوم رجال درويش باشا جهاداً عظيما . وكاد عسكر الشيخ علي الظاهر ان ينكسر . وكانت الدروز في تلك المعركة من نظارة الحرب خلف عسكر درويش باشا لا تبدي ولا تعيد. فلما رأت المتاولة قد اوشكت ان تنكسر . ولت راجعة على اعقابها فاشتدت عزايم المتاولة وتصلبوا للقتال وانكسرت عزايم درويش باشا واصحابه. فانهزموا وطمعت فيهم المتاولة والغز . فساقت في آثارهم . وقتلت من ادركته منهم . وفقد في ذلك اليوم من عسكر درويش باشا نحو سبعمئة نفر . ومن عسكر الشيخ علي الظاهر نحو الف قتيل . وكان عسكر الدروز قد سبق عسكر الدولة في الجزيرة . كما مر . وتلاه عسكر الدولة . فلحقوهم واخذوا يسلبون من اطراف العسكر . فاظفروا به . واخذت عساكر الدولة في طريقها الى دمشق . ووصل الامير يوسف الى دير القمر وفحص عن الذين سلبوا عسكر الدولة . فامر عليهم بقصاص بليغ واسترد تلك الاسلاب وارسلها الى دمشق.

مراكب المسكوب تحاصر بيروت

وفي هذه السنة حضر الجواب الى علي بك والشيخ ظاهر العمر من الملكة كاترينا ملكة المسكوب وارسلت اليهما المراكب الحربية حسب طلبهما فارسل الشيخ ظاهر المراكب الى بيروت قصاصاً للامير يوسف عن حصاره صيدا . وخرجت الامراء الشهابيون من بيروت الى الجبل وتبعتهم النصارى وكان ذلك في شهر حزيران . فارسل الامير يوسف يستجير بعثمان باشا . واخبره بقدوم مراكب المسكوب الى بيروت ومقاومة عمه الامير منصور والامير احمد له . فارسل اليه احمد بك الجزار ومعه عسكر من المغاربة ولما علم الامير منصور بقدوم احمد الجزار استدعى رجلاً من المغاربة يقال له ابو عقلين ودفع له شيئاً من المال حتى يقتل احمد بك الجزار قبل وصوله الى بيروت . فاجاب . واكمن له في ميدان البلشة بالقرب من بيروت حتى مر من هناك فاطلق عليه الرصاص

فاصاب عنقه ولم يكن قاتلا . فخرج السيد مصر به الامير يوسف جراحا وداواه حتى برأ جرحه واقره على بيروت مكانه من قبل الامير يوسف . ولم تزل المراكب على بيروت حتى دخلت الناس بالصلح بين الامير يوسف وعمه الامير منصور فاصطلحا . وارسل الامير منصور الى الشيخ ظاهر ان يرفع المراكب عن بيروت . فرفعها وقدم لهم الامير يوسف خمسة وعشرين الف غرش . وبقي احمد بك الجزار في بيروت محافظاً عليها لامر عثمان باشا .

قلعة قب الياس

وفي هذه السنة تسلم الامير سيد احمد اخو الامير يوسف حكم البقاع واقام في قلعة قب الياس وحصنها وحمل اليها المدافع واخذ بعد ذلك يتطاول على اراضي المشايخ بني جنبلاط وبعض مناصب البلاد . واخذ الطارق على القوافل . فكان ينهب ما ظفر به . حتى ضجت الناس منه وقامت المشايخ الجنبلاطية على الامير يوسف ليردع اخاه عن ذلك . فجمع الامير يوسف عسكرًا من البلاد . وارسل الى عثمان باشا يطلب عسكرًا منه فارسل اليه جماعة من الدولة والتقوا في البقاع . فحاصروا قلعة قب الياس نحو ثلاثة اشهر حتى نفد الزاد من عند الامير سيد احمد . فسلم عن يد خاله الامير اسماعيل حاكم حاصبيا . وخرج من القلعة . فامر الامير يوسف بهدمها . وتعبت فيها اهل الصناعة تعباً شديدًا ولم يقدروا الا على هدم القليل منها لان الامير فخر الدين ابن معن كان قد بناها بناء متيناً لتقوى على ضرب المدافع والقنابل في الحصارات .

مقتل علي بك

وفي هذه السنة اتفق السناجق في مصر على مخاتلة علي بك . وكان لم يزل مقيماً في عكا . فراسلوه في الرجوع الى مصر . وكان قد ضجر من الغربة . فاجاب ورجع وتوجه معه الشيخ سعيد ابن الشيخ ظاهر العمر والشيخ كريم الايوبي . ولما اقبلوا على مصر خرج محمد بك ابو الذهب والسناجق والعساكر الى ملتقاهم . وكانوا قد اشاروا الى بعض اتباعهم ان يتعرض لبعض اتباع علي بك يكروه فيقاتله ويتعصب له من حوله . فلما التقوا ترجلوا اليه واحتفوا به وكبروا . حتى اذا كانوا في بعض الطريق ضج القوم وكثر الشغب بينهم فقطعوا عليهم واتصل القتال بين الجمهور من الطرفين . واشتعلت الحرب بينهم

فكانت موقعة هائلة . وانجرح الامير علي بك جرحاً بليغاً . وقتل علي بك الطنطاوي وكان ركناً عظيماً في رجال علي بك . فانفصل القتال واخذوا الامير علي بك على آلات من خشب الى محمد بك ابي الذهب . فانعكف محمد بك على يده يقبلها ويبكي على مصابه . وكذلك فعلت بقيت السناجق والكشاف . ودخلوا به الى مصر فما مكث الا قليلاً ومات . وقيل ان محمد بك ابا الذهب احضر له جراحين وعالجوا جرحه فامرهم ان يدسوا له سماً في المراهم فسرى السم في اعضائه ومات به .

تاريخ بيروت

وفي سنة ١١٨٧ (١٧٧٣) كان احمد بك الجزار لم يزل في بيروت . وبعد اتفاق الامير يوسف مع عمه الامير منصور كتب اليه ان يرتفع من المدينة . فابى واخذ يحصن المدينة واقام لها سوراً كان قد تهدم من زمان طويل وكانت بيروت في ما يقال مدينة عظيمة حتى قيل ان الديوان كان عند مقام الامام الاوزاعي وكانت البلدية في جبل المتن المشرف على الحضيض المتصل بها . وهناك الدير الذي يقال له دير القلعة الى الآن وفي خلال هذه المسافة ابنية كثيرة تحت التراب وآبار ومصانع واقنية للماء ورسوم كثيرة تدل على قبور اليهود . وكان يأتيها الماء من نبع العرعار في اوسط المتن على مسافة طويلة في قناة من حجر . وكان في طريق الماء وادي عميق اذا انحدر اليه الماء لا يسلك اليها . فاقاموا له قناطر في الوادي بعضها فوق بعض حتى استوى طريق الماء على هذه القناطر . وعبر على الجانب الآخر من الوادي . والى الآن قد بقي شيء من هذه القناطر يقال له قناطر زبيده . وكثير من القناطر والمجاري في طريق هذا الماء الى المدينة قد علاه الردم من تمادي الزمان .

وكانت بيروت بتلك البندقية فلما ظهر الاسلام واستظهر على بلاد العرب مشى ابو عبيده ابن الجراح وصلاح الدين يوسف بن ايوب في فتح هذه المملكة حتى وصلا الى بيروت . فحاصراها تسعة ايام . وفي العاشر سلمت . فتسلمها واقاما بها من يقوم بحفظها وانتقلا الى صيدا فلاقاهما اعيانها بالمفاتيح الى البساتين التي في الخارج . وكانت جميع هذه البلاد يومئذ في يد الافرنج . فخرجت عنها وتسلمتها الاسلام . ومضى على ذلك ما شاء الله من الزمان .

فحضر ابن ملك البندقية الى بيروت بجماعة من الافرنج . فحسب الاسلام ان يداخل قومه شيئاً فشيئاً . فيملكون عليهم البلد . وكان فيهم شيخ اعمى يقال له الشيخ شمس الدين . فقال انا اقتل هذا الغلام واكفيكم شره على ان تكفوا اصحابه عني اذا حملوا علي : فقالوا نعم . وكان دار القيسارية التي يقال لها القيسارية العتيقة مكان كان جامع الصلاة ثم ترك وصار حانوتاً للقهوة . وبازائه عند باب القيسارية فسحة داخلة في جانب السوق . فنصبوا كرسياً لذلك الغلام في تلك الفسحة . وعلم بمكانه الشيخ شمس الدين فحضر ومعه جماعة من المسلمين حتى دنا منه فسأله صدقة . وبينما اشتغل عنه باخراج ما يعطيه هجم عليه واخذ بعنقه . فوثبت اصحابه عليه . فاعترضتهم الاسلام ولم يصلوا اليه حتى مات . ومالت اليهم الاسلام بالسيف . فقتلوا بعضا . ونجا بعض فنعوا الى الملك ولده فاستشاط غضباً وجهز عمارة عظيمة في البحر فتغلب على بيروت وافتتحها وقتل خلقاً كثيراً من اهلها . وهرب من سلم منهم . فاحرقت الافرنج المدينة وهدمت اكثرها . وتشتت بعد ذلك اهلها في البلاد الى مدة طويلة . فرجع بعضهم واصلحوا شيئاً من الابنية[1] . وما زالت كذلك الى ولاية الامراء التنوخيين فاقاموا بعضاً من ابنيتها . وبنى الامير منذر الجامع المعروف باسمه حتى الآن عند النوفرة . وافضت النوبة الى الامراء بني معن فبنوا البرج الكشاف وخان الوحوش ودار الولاية والجامع المنسوب اليها . ثم الى الامراء بني الشهاب . فاقام الامير ملحم خان الملاحة والامير يوسف قيسارية الصاغة والامير سليمان ابو اللمع قيسارية البارود والامير يونس القيسارية المعروفة باسمه والشيخ عبد السلام العماد القيسارية التي في رأس سوق العطارين والشيخ شاهين تلحوق القيسارية التي بالقرب من القيسارية العتيقة حيث قتل ابن ملك البندقية . وكانت القيسارية العتيقة لزوجة الامير احمد الشهابي وكان يقال لها ام دبوس ولها البرج المستدير بجانب السور والبرج الذي يقال له طاقة القصر وكان للامير منصور . وكان البرج الجديد الذي فوق طاقة القصر للامير مراد ابن الامير منصور . وبالقرب منه دار للامير علي وتحته دار للامير حسين وتحتها

[1] لم نعثر على اصل لهذه الحكاية في ما تحت يدنا من تواريخ الحروب الصليبية . ولعل المؤلف اخذها عن تقليد محلي قديم .

دار للامير بشير السعين متصلة بالمدينة بالقرب من باب البلد الذي يقال له باب يعقوب الكسرواني . وكان يعقوب ماردًا يقطع الطرق فقتل في نهر الكلب ودفن في ساحة ذلك الباب . وله حكاية طويلة .

دير القمر واقسام لبنان

وكانت دار الولاية في الجبل ايام بني تنوخ ومن قبلهم في بعقلين . ولم يكن فيها ماء . وكان في جانب الوادي المقابل لها غابة فيها نبع من الماء . كانت رعاة المواشي تقصده لتسقي مواشيها . وفي اعلى تلك الغابة دير للنصارى قد تهدم من تعادي الزمان . وكانوا ضعفاء لا يقدرون على بنايته . فكانوا يجتمعون ليلًا تحت ضوء القمر باهليهم جميعا فيبنون فيه شيئًا قشيئًا لئلا تفوتهم اشغال النهار . ولذلك قيل له دير القمر . ولما صارت الولاية الى بني معن اختاروا ان يستوطنوا ذلك المكان لما فيه من الماء . فبنوا فيه منازل عظيمة وتحولوا الى هناك . وتبعتهم الناس فبنوا واستوطنوا حتى استأهلوا تلك الغابة . وقام في بني معن الامير فخر الدين فتولى من غزة الى حلب الشهباء . وكان حد البلاد قبل ايامه من جزين الى غزير فقط : فكان اقليم الحرنوب واقليم التفاح واقليم جزين وجبل الريحان في يد وزير صيدا يرسل الى كل مكان منها متسلماً من قبله . وكانت البقاع والمتن في ايالة دمشق الشام وبلاد جبيل والبترون والكورة والجبة والزاوية في ايالة طرابلس .

بيت الخازن

ولم تكن في البلاد ولاية في ايامه الا للشايخ بيت الخازن في كسروان . وكان اول بني الخازن في كسروان رجل اسكاف يقال له ابو نادر قد رحل من قرية خبب احدى قرى حوران والقاه الدهر الى هناك . ودارت الدائرة على بني معن فلم يبق منهم الا طفل رضيع . فهربت به امه الى كسروان واتفق نزولها في بيت هذا الرجل . فعرفته بنفسها . وكتم عليها ذلك الى ان شب الغلام . وكان له احزاب وعصايب كثيرة في البلاد وكان لا يعلم الا ان الرجل ابوه . فاعلمه ابو نادر بابيه وخرج الى احزابه في البلاد فاعلمهم بمكانه . وقام بذلك الامير فخر الدين ما كان من امره . فانعم عليه بولاية كسروان . وكتب له الاخ العزيز . ولم يكن يكتب ذلك لاحد في البلاد . وترك له الاملاك السلطانية

عما يتملكه من ... فتمكنت اعلام بني معن ... تقتصر حكم البلاد على ... التي مر ذكرها

محاصرة الجزار في بيروت

وافضت الولاية الى بني الشهاب ، فكانوا يتزلون صيفاً في دير القمر وشتاء في بيروت . وعمرت بذلك المدينة حتى محى فيها الجزار كما ذكرنا . فهدم دور الامراء الشهابيين التي خارج المدينة الا دار الامير مراد فانه هدمها حصنا وبنى بحجارتها السور واحرق بعض بيوت النصارى وجعل كنائسهم اصطبلات للخيل وقطع اشجاراً كانت في جوانب المدينة لاهل الجبل . واتفق انه في ذلك الوقت اقبل مركب فيه مال كثير لتجار بيروت . فضبط ذلك المال وكان نحو مئتين الف درهم . واستخدم ببعضه رجالاً وارسل الى بعض مناصب البلاد ليستميلهم اليه ويعدهم المواعيد الحسان . فمال اليه الشيخ عبد السلام عماد والشيخ حسين تلحوق وغيرهما من المشايخ . وكان يومئذ على دمشق الشام عثمان باشا المصري وكان صديقاً له . فارسل اليه مالاً ليستخدم له به رجالاً . وكتب الى اصدقائه في دمشق وبعث اليهم بشيء من المال ليستخدموا له رجالا ويبادروا بهم نحوه الى ارض البقاع . فاجابوه الى ذلك واشتهر بالحماوة فاتفق الامير يوسف وعمه الامير منصور ان يستنجدوا الشيخ ظاهر العمر . فكتبا اليه وسألاه ان يرسل لهما المراكب المكوبية . وكانت المراكب في قبرص . فاستدعاها الشيخ ظاهر وارسلها الى بيروت . وكانت نحو اربعين مركباً . فحضرت ورست في مينا بيروت . وكان سر عسكرها رجلا يقال له الكونت جوني . فاتفق مع الامير يوسف والامير منصور انه متى امتلك لهما بيروت يدفعان اليه ثلاثمئة الف غرش . واخذ رهناً على ذلك الامير موسى ابن الامير منصور . وجمع الامير يوسف عسكر البلاد وحاصر المدينة براً وحاصرتها الافرنج بحراً . واطلقت عليها المدافع والقنابل حتى قيل انهم اطلقوا عليها ستة آلاف مدفع في نوبة واحدة . فكللت المسامع من تلك الاصوات وظنت الناس انه قد قامت الساعة . وسمع صوت المدفع الى فوق مدينة دمشق الشام على مسافة اربعة ايام . وكانت لا تقبل كثيراً بالمدينة لان حجارتها رملية تتحد بالكلس حتى تصير كأنها حجر واحد . فكانت تأخذ على قدرها من الحجر الذي تقع فيه ثم ترجع عنه

وهو في مكانه ودام الحصار نحو اربعة اشهر فتضايق من في المدينة وقل من عندهم الزاد فاكلوا لحوم الحمير والكلاب واضطر الجزار الى التسليم . فطلب الامان عن يد الشيخ ظاهر العمر . فاجاب الامير يوسف . وحضر يعقوب الصيقلي من قبل الشيخ ظاهر وتسلم الجزار وسار به الى عكا . وتسلم الامير يوسف المدينة وضبط اسلحة المسلمين واخذ منهم المال الذي تعهد به للقبطان ودفعه اليه . فسافر بتراكبه عن المدينة . واتفق الامير يوسف مع عمه الامير منصور وتزوج بابنته ونكب الشيخ عبد السلام العماد والشيخ حسين تلحوق واخذ منهما جانباً من المال لاجل وسيلتهما مع الجزار كما مر . واقام الجزار عند الشيخ ظاهر اياماً . ثم اختلس بغال الشيخ ظاهر وسافر ليلاً .

وكان بين الشيخ ظاهر العمر وبين عثمان باشا المصري صداقة . وكان الشيخ ظاهر قد وقع تحت غضب الدولة لاجل اتفاقه مع علي بك وقتاله لعثمان باشا الكرجي واقامته على ولاية صيدا بغير امر الدولة . فارسل عثمان باشا المصري يترأجم على مراجيم الدولة العلية في الصفح عن الشيخ ظاهر وسأل الانعام عليه بتمليك الايالة تحت خمسة الف غرش يدفعها من الماضي ويدفع في المستقبل كل سنة مئتين وخمسة وعشرين الف غرش ويؤدي خدمة الجردة المعتادة . فأجابت الدولة سؤاله وارسل عثمان باشا الى الامير يوسف يبشره بذلك . فانف الامير يوسف من ذلك باطناً لانه لم يكن يريد ان يكون الشيخ ظاهر والياً على ايالة صيدا ويكون هو حاكماً من تحت يده . ولكنه اظهر المسرة بذلك . وارسل الى الشيخ ظاهر يهنئه بهذا الانعام .

وفي سنة ١١٨٧ (١٧٧٣) وقع الاختلاف بين عثمان باشا المصري والامير يوسف . فجهز عثمان باشا عسكراً وخرج به الى البقاع ونصب خيامه في بر الياس وكان عسكره ينوف عن خمسة عشر الفاً . فجمع الامير يوسف عسكر البلاد وتوجه به الى المغيثة وحدث جملة وقائع بين العسكرين . فارسل الامير يوسف الى الشيخ ناصيف النصار ان يحضر لاسعافه . فحضر بخيل بني متوال . ولما علم عثمان باشا بقدومه خاف من اجتماعها عليه وعند وصول الشيخ ناصيف الى القرعون هرب عثمان باشا في الليل بعساكره . وفات اكثر الوطاق والمدافع . وعند الصباح سارت عساكر البلاد الى بر الياس واغتنمت كل ما

هناك. وارسل الامير يوسف الى الشيخ ناصيف [illegible] قد قضيت ولي مهمات ابادر اليها. فرجع الى بلاده وعاد الامير يوسف الى [illegible] وطابت له الايام وصار بينه وبين الشيخ ناصيف الانصار والمدولة شدة [illegible].

وفاة الامير منصور

وفي سنة ١١٨٨ (١٧٧٤) انعزل عثمان باشا المصري من دمشق وتولاها محمد باشا ابن العظم. وحضر ولده يوسف باشا الى طرابلس الشام.

وفي هذه السنة توفي الامير منصور الشهابي في مدينة بيروت. وحزنت عليه بنو الشهاب حزناً عظيماً واقاموا له مناحة عظيمة. وكان قد بلغ من العمر ستين سنة. وكانت مدة ولايته ثماني عشرة سنة. وارتاحت الناس في ايامه وامتلكت عائلته كثيراً من الاملاك. وكان دفنه في جامع الامير منذر التنوخي ورثاه السيد احمد البربير البيروتي بقوله:

سقى هذا الضريح سحاب فضل ... وعم بالرضى من في ثراه
اميراً كان في الدنيا شهاباً ... ومنصوراً على قوم عداه
فان يك عن عيوني قد توارى ... فحسبي ان قلبي قد حواه
ولما سار للفردوس فوراً ... وقربه المهيمن واصطفاه
اني ناريخه في بيت شعر ... يود البدر ان يحظى سناه
فهمله ومجمه وكل ... من الشطرين تاريخاً تراه
شهاب رحمة المولى عليه ... هوى للغرب بدراً من رباه.

والامير بشير السمين

وبعد وفاة الامير منصور بستة وعشرين يوماً توفي اخوه الامير بشير السمين. وكان عظيم الجثة الى غاية ما يكون حتى لم يكن احد يقاربه بذلك وكان قد تزوج واقام سنوات مع زوجته ومات عنها وهي بكر لافواط سمنه. وكانت الخيل لا تحمله لشدة ثقله. فكان يركب البغال. وكان عظيم القدرة. فاذا اراد ان يركب وقف عند باب الدار في دير القمر على مرتفع هناك واخذ باذن البغل فجره اليه كما يجر السنور. وقيل انه حدث شغب في دير القمر بين الجنود وبعض اهل الدير ليلاً. فخرج ليفصل بين القوم. وكان قد ضرب للخيل سلاسل من حديد في الساحة. فعثر بشيء منها في طريقه. فقطعه ومر. ولما توفي ضبط الامير يوسف تركته لانه لم يكن له ولد ومنع اخوته من الميراث.

موت محمد ابي الذهب

وفي سنة ١١٨٩ (١٧٧٥) كان قد حضر تجبي من الباب العالي وعن يده فرمان الى الشيخ ظاهر العمر في العفو عنه والانعام عليه . وكان محمد بك ابو الذهب قد عرض للدولة يشكو تمرد الشيخ ظاهر العمر وخروجه عن الطاعة مع علي بك امير اللواء . ويستأذن في القيام عليه . فاذنت له الدولة وخرج من مصر بركبة ملوكية تنوف عن ستين الفاً . وكان الشيخ ظاهر قد اطمأن بذلك الفرمان وعول على صدق الوفاء واخلص نيته للطاعة . وبينما هو كذلك وفدت عليه اخبار محمد بك ابي الذهب فارتاع وضاق صدره واخذ يوزع خزائنه واموالة واخرج نساءه من عكا الى تلك الجبال وتجهز للفرار . ولما وصل محمد بك الى يافا اقام عليها الحصار . وكان الشيخ ظاهر قد حصنها بالعساكر والذخاير واقام عليها ابن اخيه الشيخ كريم الايوب . فاقاموا على حصارها مقدار شهر وافتتحوها بالقلبة . وامر ابو الذهب بضرب السيوف في اهلها جميعاً . فقتلوا من العساكر والرعايا نحو خمسة آلاف وسبوا النساء وذبحوا الاطفال وساروا نحو مدينة عكا . وكان الشيخ ظاهر قد هرب لما سمع بفتح يافا . وهرب الامراء الشهابيون من بيروت . وارسل اليه الامير يوسف هدايا فاخرة وطلب منه الامان . فاجاب احسن جواب وكان قد خرج من مصر ظاهراً باذن الدولة . ولكنه في الباطن كان يضمر الخروج (عليها) . وكان يريد ان يتملك قطر الشام ثم يتقدم الى ما بعده من عربستان . وكان يكره النصارى وان كان منهم في الاصل . فكان قد عزم ان لا يترك بيعة ولا راهباً في البلاد التي يتملكها . وابتدأ بدير مار الياس الكرمل فهدمه وهزبت رهبانه . وبينما هو قادم الى عكا نام في جشته صحيحاً . وبينما هو نائم صرخ صراخاً منكراً واستحوذ عليه حال كالجنون . وكان يقول لمن حوله : اخرجوا عني هذا الشيخ المفترس فانه يريد ان يقتلني . وكانوا لا يرون احداً حوله . فعجبوا من ذلك وارتاعوا . وما زال كذلك حتى مات في ضجعته . فداخل قومه من ذلك امر عظيم . واجتمعوا عليه فحنطوه وجعلوه في تابوت وعادوا به الى مصر فدفنوه هناك . وكان لهلاكه بهجة عظيمة في عربستان لان الجميع كانوا خائفين من سطوته . وقضى الله حاجة الشيخ ظاهر العمر على اهون سبيل . فرجع الى عكا وخلا باله .